

شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين •• والصلاة والسلام على رسوله الأمين ••
محمد بن عبد الله الذي أرسله رحمة للعالمين •• بلسان عربى مبين •

يسعدنى أن أتقدم بالشكر والثناء الى من أسهموا فى تقويم
هذه الدراسة بالنقد والتعليق واسداء النصح •• وأخص منهم نخبة
كريمة من علماء الدراسات الانسانية فى جامعة الخرطوم وبعض
الجامعات العربية الأساتذة : الدكتور يوسف فضل حسن ، والدكتور
ابراهيم الحارذلو ، والدكتور عثمان سيد أحمد اسماعيل ، والدكتور
مدثر عبد الرحيم الطيب ، والدكتور تاج السر حران ، والدكتور حسن
عبد الله الترابى ، والدكتور عبد العزيز كامل •

ومن الأصدقاء الأستاذ محمد عثمان محمد العوض •

والاخوة الذين أشرفوا على الطباعة التمهيدية •

فلهم جميعا تحية تقدير واعزاز •• ولهم من الله حسن المثوبة
وخير الجزاء •

المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

يمتد الوطن العربي عبر مساحات كبيرة فى القارتين الآسيوية والافريقية ولكن الدراسة التى عنيت بها فى هذه الفصول تتناول قضية الأمة العربية متمثلة فى وادى النيل والهلال الخصيب ، خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين ، لأن هذه المنطقة كانت قبلة أنظار الدول الغربية الطامعة فى اقتسام تركة « الرجل المريض »^(١) نظرا الى أهميتها الاستراتيجية وما يرتبط باحنلالها من آثار ومزايا فى مجال السياسة الدولية والتنافس على مواقع النفوذ بين الدول الأوروبية الكبرى ، وكانت فى الوقت ذاته تمثل أهم الأقاليم العربية المنضوية تحت لواء الخلافة العثمانية^(٢) وقد تميزت الفترة موضع البحث (١٨٧٥ - ١٩٢٥) بأنها شهدت الارهاصات الأولى لميلاد القضية العربية الحديثة كما شهدت نموها ودخولها مرحلتها الحاسمة .

لقد درج بعض الباحثين على الفصل بين القضية العربية فى الهلال الخصيب وما كان يعرف « بالمسألة المصرية » أو « مسألة السودان »^(٣) وهو فصل ينطوى على عزل للأحداث بعضها عن بعض بحيث تتوارى الصورة الكلية للقضية خلف الجزئيات .

(١) تعبير ساخر أطلقته الدبلوماسية الأوروبية على الدولة العثمانية المحتضرة فى ذلك العصر .
(٢) على الرغم من انفراد محمد على بمصر منذ مطلع القرن التاسع عشر فانها ظلت من الوجهة القانونية خاضعة لسيادة العثمانية حتى عام ١٩١٤ (اعلان الحماية البريطانية)

(٣) Mekki Abbas, The Sudan Question (1884 - 1951) (٣)
Faber and Faber, Ltd, London, 1951.

ومهما كانت الدوافع لهذا الفصل ، فان المسألة واحدة هي قضية « الأمة العربية » بكل مقوماتها الحضارية المتميزة ووحدتها اللغوية وانتمائها الاسلامى . بل هكذا كان الغربيون ينظرون اليها دون أن يسموا الأثنياء بأسمائها •

ولعل أكثر الذين يدركون هذه الحقيقة قادة الحركة الصهيونية ، فعندما تحدث دافيد بن جوريون فى المؤتمر الصهيونى السابع عشر فى « بال » بسويسرا (يونيو - يوليو ١٩٣١) كان يضع هذه الحقيقة نصب عينيه •

قال بن جوريون : « ان الخطر علينا لا يأتينا من عرب فلسطين وجدهم ، ولكن علينا أن نفكر فى مصر وشمال افريقيا وكافة المسلمين وكل من يتحدث اللغة العربية » (٤) .

* * *

وقد رأيت أن أتناول الموضوع فى الصفحات التالية بقدر ما تيسر لى من مصادر أحسب أنها تلقى مزيداً من الأضواء على هذه القضية ، ان لم يكن فى صورتها الكلية فعلى الأقل فى بعض جوانبها • اننى مدين لمكتبة جامعة الخرطوم والمكتبة البريطانية « المتحف البريطانى » بلندن ومكتبة الكونجرس فى واشنطن وقد أثبت فى ذيل هذا الكتاب المصادر التى تيسر لى الاطلاع عليها فى تلك الدور • لقت أفدت كثيراً من مجموعة الوثائق الرسمية التى نشرها « Albert M. Hyamson » فى مجلدين عام ١٩٣٩ بعنوان :

« The British consulate in Jerusalem in Relation to The Jews of Palestine. »

وهى مجموعة الرسائل المتبادلة بين وزارة الخارجية البريطانية وبعض سفارات بريطانيا وقنصلياتها فى الشرق الأوسط حول وضع اليهود ، ويشمل الجزء الأول رسائل الفترة (١٨٣٨ - ١٨٦١) والجزء الثانى ، الفترة بين عامى (١٨٦٢ - ١٩١٤) •

تلقى هذه الرسائل ضوءاً كبيراً على مساعى اليهود فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لدى الحكومة البريطانية لتيسر لهم الهجرة الى فلسطين والاستقرار فيها بممارسة الضغط على الدولة العثمانية لأن فلسطين كانت جزءاً من الولايات العربية العثمانية وذلك قبل ظهور دعوة « هرتزل » مؤسس الحركة الصهيونية بنحو خمسين عاماً . كما توضح الرسائل مقاومة الدولة العثمانية لهذا الضغط اليهودى البريطانى لا سيما فى عهد السلطان عبد الحميد .

وهناك مجموعة أخرى من الوثائق البريطانية اعتمدت عليها فى دراسة فترة ما بعد الحرب (١٩١٩ — ١٩٢٥) وهى وثائق السياسة البريطانية الخارجية المجموعة الأولى (١٩١٩ — ١٩٣٩) .

« Documents on British Foreign Policy, First Series 1919 — 1939 Ed. Woodward and Butler, London, 1952 »

وهذه المجموعة حافلة بالمعلومات الهامة عن سياسة الغرب نحو البلاد العربية فى الشرق الأوسط وفلسطين بوجه خاص . ومن الوثائق التى أهدت منها مذكرة عن منشأ وعد « بلفور » لم تنتشر وهى للكاتب الصهيونى الأرمنى « جيمس مالكولم » بعنوان : « Origins of The Balfour Declaration » مؤرخة فى يوليو ١٩٤٤ وم محفوظة تحت رقم « Cup 1247c. 28 » فى مكتبة المتحف البريطانى . أما عن الحركة الصهيونية فقد استعنت بمذكرات « هرتزل » وكتابه « الدولة اليهودية » ومذكرات « حايم وايزمان » وبعض مؤلفات أحدها عام « أشر جنزبرج » وتاريخ « سوكلوف » للحركة الصهيونية ؛ وبعض مقالات « لوى براندايس » عن اليهودية والصهيونية ، والتاريخ الاجتماعى والدينى لليهود للأستاذ « Heinrich Graetz » وتاريخ اليهود للمؤرخ « Salo Wittmayer Baron »

* * *

وفى ما يتعلق بأمر فلسطين اعتمدت على بعض التقارير الرسمية لحكومة فلسطين — حكومة الانتداب البريطانى — وتقارير لجان التحقيق التى ألفتها الحكومة البريطانية ووقائع اجتماعات اللجنة الدائمة لشئون الانتداب فى جنيف وهى إحدى لجان عصبة الأمم كما أخذت عن

لوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين : المجموعة الأولى (١٩١٥ - ١٩٤٦) وهى من منشورات جامعة الدول العربية بالقاهرة (١٩٥٧) ، ووجدت كثيرا من المعلومات القيمة فى مذكرات السير « رونالد ستورز » وبعض مؤلفاته .

وفى دراسة الحركة العربية وأهدافها بعد الانقلاب العثمانى فى عام ١٩٠٨ اعتمدت على قرارات المؤتمر العربى الأول الذى عقد فى باريس فى يونيو ١٩١٣ وعلى البيانات الرسمية لحزب اللامركزية لعثمانى فى القاهرة وعلى أقوال قادة العمل السياسى فى الوطن العربى آنذاك التى كانت تنشر فى مجلة « المنار » من أمثال « رفيق العظم » « وعبد الحميد الزهراوى » والنسيخ « محمد رشيد رضا » ومذكرات « أسعد داغر » على هامش القضية العربية .

ولما كانت القضية العربية الحديثة ذات صلة وثيقة بنمو الشعور القومى والتراث الحضارى للأمة العربية فقد آثرت أن أستهل هذا البحث فى « الفصل الأول » بحديث عن مفهوم « الأمة العربية » ومقوماتها والعوامل التى مهدت لظهور « القومية العربية » خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

وأفردت الفصل الثانى لدراسة القضية العربية ومعالمها فى ظل الدولة العثمانية (١٨٧٥ - ١٩١٤) وهذه الفترة تشمل بالتقريب حكم السلطان « عبد الحميد الثانى خان » (١٨٧٦ - ١٩٠٨) كما تشمل السنوات الخمس الأولى من حكم الأتراك الاتحاديين « جمعية الاتحاد والترقى » وتمتد من سنة ١٩٠٩ الى سنة ١٩١٤ وتتميز هذه الفترة بأنها كانت تمثل مرحلة الدعوة الى الاصلاح لدعم الخلافة العثمانية وتأكيد وحدتها السياسية وذلك على الرغم من ظهور بعض النزعات العنصرية والقومية والحائفية التى لم يكن لها شأن يذكر ، ولم يكن لدى قادة الحركة العربية حتى ذلك الوقت سعى حقيقى للانفصال عن الخلافة العثمانية أو الثورة عليها بل كان العرب فى

مصر والهلال الخصيب يصفون أنفسهم بأنهم « عرب عثمانيون » يعملون على تقوية الدولة بالنقد البانى والاصلاح السياسى والدينى والاجتماعى . وعنيت فى هذا الفصل بايضاح سياسة الدولة العثمانية فى عهد خلفاء آل عثمان نحو حماية فلسطين من الهجرة اليهودية الاستيطانية ، ومقابلة هذه السياسة بما أصبح عليه الحال فى عهد جمعية الاتحاد والترقى بين سنتى ١٩١٣ - ١٩١٤ عندما جردت الجمعية الخليفة العثمانى من سلطاته الحقيقية على اثر عزل السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ ، واتجهت سياستها الى ممألة الصهيونية والتمكين لها فى المناصب القيادية وفتح باب الهجرة اليهودية الى فلسطين والاستيلاء على أرضها عن طريق التملك وهو ما كان محظورا فى عهد الخلفاء العثمانيين منذ عام ١٨٤٠ الى نهاية حكم السلطان عبد الحميد .

أما سنوات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) فموضع دراستها الفصل الثالث لأنها تمثل الفترة التى طفح فيها كيل الأتراك الاتحاديين ، ووضحت فيها اتجاهاتهم المعادية للعروبة والاسلام ، وعنفهم فى قمع حركة الاصلاح الناشئة ، واعداد قادة الحركة العربية أفراداً وجماعات فى دمشق وبيروت ، والحكم غيابيا على قادتها فى مصر . ومن ثم شهدت هذه الفترة التحول الخطير فى اتجاه القضية عندما قرر قادة العرب الثورذ على حكم الأتراك الاتحاديين والدعوة الى الاستقلال الكامل ولم تأل بريطانيا جهدا فى استغلال هذا الموقف وتوجيهه لتحقيق مآربها ، رافعة شعار استقلال البلاد العربية واحياء الخلافة فى دار العروبة فكانت الخديعة الكبرى التى واجهتها الأمة العربية فى تاريخها الحديث .

ويعالج الفصل الرابع تصاعد الشعور القومى ضد الغزو الأوروبى وردود الفعل لهذه الخديعة بين عامى ١٩١٩ - ١٩٢٥ عندما ثارت مصر بقيادة «سعد زغلول» «وعبد الرحمن فهمى» (مارس - ابريل ١٩١٩)

وأعلن فيصل قيام الدولة العربية في سوريا (مارس ١٩٢٠) وثار شعب فلسطين على الزحف الصهيوني المنظم ولكن سرعان ما تحول حلفاء الأمم من أدياء الصداقة العربية الى أعداء لحركة التحرر العربي فقمعت هذه الثورات كلها بقوة وعنف وظفرت الأمة العربية بقبض الريح بعد أن تمردت على دولة الخلافة العثمانية وساعدت على اسقاطها وحصدت خيبة الأمل •

* * *

ونظراً الى خطورة الحركة الصهيونية وصلتها بوحدة الأمة العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها فقد أفردت الفصل الخامس لدراسة الصهيونية الحديثة وما تستند اليه من دعاوى فلسفية ودينية والظروف التي أتاحت للصهيونية أن تنمو من طور الفكرة المنبوذة في نظر أكثر يهود العالم الى حركة سياسية تسخر صناعات السياسة الدولية لخدمة أهدافها ومطامعها •

* * *

مقدمة

● رصد مسار القضية في خمسين عاما — تحولات سياسية في المنطقة العربية — دراسات حول القضية — أبعادها ومقوماتها التاريخية — الصعاب التي تكتنف الدراسة — الوجود العربي قبل الاسلام — المد العربي بعد الاسلام — مسيرة الاسلام بعد العرب — الأتراك العثمانيون — القسطنطينية حاضرة الاسلام — أوروبا أمام تحدى العثمانيين — الدولة العثمانية تحتضر — العرب على مفترق الطرق — عناصر الصراع الفكري والسياسي — انبثاق القضية العربية .

ليس هذا الكتاب تاريخا للحركة القومية الحديثة في الشرق العربي أو ما يسميه الكتاب الغربيون « الشرق الأوسط » ولكنه محاولة لدراسة القضية العربية في تلك المنطقة ورصد مسارها خلال خمسين عاما كانت حافلة بأعمق التحولات السياسية التي قلبت ميزان القوى في المنطقة وكانت لها آثار بعيدة المدى في تشكيل مستقبل الأمة العربية .

لقد تناول عدد كبير من الكتاب والباحثين دراسة القضية العربية في مراحلها الزمنية المختلفة ، مع تباين تصورهم لأبعاد هذه القضية ومقوماتها وجذورها التاريخية فمنهم من تصدى لدراستها باعتبارها جزءاً من تاريخ الشرق الأوسط كالأستاذ « برنارد لويس » في كتابه « العرب في التاريخ » وكتابه « الشرق الأوسط والغرب » والأستاذ « ب . م . هولت » في كتابه « مصر والهلال الخصيب » والأستاذ « محمد أنيس » في دراسته عن « الدولة العثمانية والشرق العربي » ومن الطبيعي في مثل هذه الدراسة أن تتال القضية نصيبها بالقدر

الذى يتفق ومكانتها فى الفترة التاريخية موضع البحث ومن ثم يغلب على معالجتها الايجاز والاجمال •

وهناك باحثون تناولوا القضية فى اطارها العام دون تركيز على جانب معين من جوانبها كالأستاذ جبرائيلى « البعث العربى » وجورج أنطونيوس « يقظة العرب » وأمين سعيد « الثورة العربية الكبرى » والأستاذ محمد بديع شريف وزكى المحاسنى وأحمد عزت عبد الكريم « دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة » وغير هؤلاء ولكن هناك من عنى بدراسة بعض جوانب القضية دراسة تقوم على نوع من التخصص والتفصيل أذكر منهم الأستاذ زين نور الدين زين « العلاقات العربية التركية وظهور القومية العربية » وكتابه « ظهور القومية العربية » والأستاذ مكى شببكة « العرب والسياسة البريطانية فى الحرب العالمية الأولى » والأستاذ توفيق على برو « العرب والترک فى العهد الدستورى العثمانى » وذلك فضلا عن عشرات المؤلفات والمقالات التى ظهرت عن القومية العربية بوجه عام وعن « قضية فلسطين » على وجه التحديد •

ولا شك أن القضية العربية موضوع خصب يفتح أمام الباحث آفاقاً رحبة للتأمل والدراسة ولكنها آفاق محفوفة بالصعاب ، لا يتيسر لفرد أن يوفيقها حقها لأن القضية تضرب بجذورها فى الماضى القريب والبعيد وتمتد أبعادها عبر الزمان والمكان وتتنوع مصادرها بين وفرة هنا وندرة هناك وتتناثر أخبارها بين ثقافات الرواة وضعاف الأسانيد ومن ثم تصبح مهمة الباحث عسيرة لأنه يواجه كل هذه الصعاب مجتمعة •

ان جذور التاريخ العربى قديمة قدم الممالك التى شهدتها الجزيرة العربية منذ عهد معين وسبأ وحمير (١٣٠٠ ق.م - ٥٢٥ م) وعهد الحيرة والغساسنة وحواضر الحجاز ، مكة والمدينة والطائف ، ولكن العرب الذين غيروا وجه الحياة فى الشرق الأوسط وأناروا ظلمات العصور الوسطى بقبس الحضارة الاسلامية ونقلوا تراث الفكر اليونانى الرومانى الى أوروبا واتصل تاريخهم بالعالم المعاصر هم العرب المسلمون الذين

نهلوا من معين الإسلام ثم خرجوا من المدينة المنورة فى هجرة فريدة غيرت مجرى التاريخ فى رقعة فسيحة من العالم ، وبنت حضارة سماها أحد الكتاب الغربيين «المعجزة العربية Le Miracle Arabe» (١) مشيراً بصفة خاصة الى عصر الرشيد والمأمون •

غير أن المد العربى ما كاد يبلغ مداه خلال ثلاثة قرون بعد ظهور الإسلام حتى أخذ العرب يتوارون من المسرح السياسى خلف شعوب ودول أخرى شرح الله صدرها للإسلام فحملت رأيتها عبر قارات الكرة الأرضية ، وكانت آخر دولة من تلك الدول التى بسطت نفوذها على العالم العربى وارتبط بها مصير الأمة العربية حتى يقظتها الحديثة هى دولة الأتراك العثمانيين أو الخلافة العثمانية التى أضحت مبعث قلق عظيم لاساسة أوروبا منذ أن اتخذت الآستانة « القسطنطينية » حاضرة لها سنة ١٤٥٣ م الى ظهور « المسألة الشرقية » فى القرن التاسع عشر •

وعندما أخذ بناء الدولة العثمانية فى التصدع الداخلى وانهزمت جيوشها أمام الزحف الخارجى ، وتصاعدت المطامع السياسية الأوروبية لاقتسام أراضيها وتسربت الأفكار الغربية الى أقاليمها العربية ، أخذ العرب يبحثون عن ذاتهم ولغتهم وحضارتهم ويتطلعون الى تغيير حاضرهم وبناء مستقبلهم ولكنهم لم يجدوا الطريق ممهدا لتحقيق آمالهم • لقد انفرد العقد الذى كان يربطهم تحت راية الخلافة العثمانية وأطلت عليهم دول غريبة عنهم ، تفوقهم علما وقوة ودهاء فوقف العرب حائرين أمام هذا التحدى : وقفت كثرتهم مع الدولة العثمانية تشد أزرها وتدعو الى اصلاحها لمواجهة انغزو الأوروبى ، وجنح آخرون الى الانفصال عنها تحت تأثير الأفكار الجديدة داعين الى « دولة قومية » تفرق بين الدين والدنيا (٢) وبين العبادة والسياسة ، على غرار ما حدث فى أوروبا ، وانبرت طائفة منهم تمجد الحضارة الجديدة وتتخذ منها

(١) Max Vintejoux. Le Maracle Arabe, Charlot, Paris 1950, pp. 85 - 107. Introduced by Louis Massignon.

(٢) رفيق العظم : عن أسباب تقهقر المسلمين ، المنار م ٧ نوفمبر

مثلا أعلى وتتشبه بأهلها حتى فى عجمة اللسان فظهرت الدعوة الى « الاستلتان »^(٢) واتخاذ العامية لغة مقام العربية الفصحى ، واستجاب آخرون لدعوة « الفرنجة المحدثين » وتحريضهم على اعلان الحرب ضد الدولة العثمانية لقاء وعد كاذب باعادة الخلافة الاسلامية الى مهدها فى الجزيرة العربية وسلالتها القرشية وبين هؤلاء وهؤلاء كان « فرنجة القرن العشرين » يخطون لابتلاع الوطن العربى بأسره وتدمير الخلافة العثمانية^(٣) على السواء ، واقامة دولتهم الجديدة على أرض فلسطين تحت علم الصهيونية ومن خلال هذا الصراع السياسى الفكرى العقدى برزت القضية العربية المشائكة فى صورتها الحديثة ، لتحكى قصة أمة عصفت بها رياح الفرقة والتشتات بعد سقوط الخلافة .

أما العوامل التى مهدت لظهور هذه القضية وحددت اتجاهاتها فى خمسين عاما فهى الموضوع الذى تتناوله الفصول التالية بشئ من التفصيل والتحليل .

- (٣) أى استخدام الحروف اللاتينية فى كتابة اللغة العربية .
- (٤) كان لالغاء الخلافة العثمانية فى عام ١٩٢٤ صدى واسع فى العالم العربى والاسلامى ونعاهما أحمد شوقى فى قصيدة بعنوان « خلافة الاسلام » :
- | | |
|-----------------------------|---------------------------|
| عادت اغنائى العرس رجع نواح | ونعيت بين معالم الأفراح |
| كفنت فى ليل الزفاف بثوبه | ودفنت عند تبلج الاصباح |
| ضجت عليك مآذن ومنار | وبكت عليك ممالك ونواح |
| الهند والهة ومصر حزينه | تبكى عليك بهدم سحاح |
| والشام تسأل والعراق وفارس | امحان الأرض الخلافة ما ح |
| هتكوا بأيديهم قبالدة فخرهم | موشية بمواهب انفتاح |
| نزعوا عن الأعناق خير قلالدة | ونضوا عن الاعطاف خير وشاح |
- (الشوقيات : دار الكتاب العربى ، بيروت ص ١٠٥ - ١٠٦ -
- لم يذكر تاريخ النشر) . لكن شيخا من شيوخ مصر كان له رأى آخر فأصدر كتابا (١٩٢٥) ندد فيه بفكرة الخلافة منكرا صلتها بالاسلام ووصف الصديق أبا بكر رضى الله عنه بأنه كان « أول ملك فى الاسلام » وأن ملكه « قام على أساس القوة والسيف » وأن ذلك كان « أمرا مذهبيا للمسلمين حينما كانوا يتأمرون فى السقيفة بمن يولونه أمرهم » .
- على عبد الرازق : الاسلام واصول الحكم ص ١٨٣ - ١٨٤ ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت (لم يذكر تاريخ النشر) .
- للإطلاع على تنفيذ هذا الزعم ، راجع هامش ٣٩ بالفصل الأول وانظر : محمد ضياء الدين الرئيس : النظريات السياسية الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٠ .